مناهج التحري اللغوي عند قدماء النحاة واللغويين العرب

لما فتح العرب الممالك المجاورة لجزيرتهم وانتقل الكثير منهم اليها فانهم لم يغلقوا أبواب مدنهم لسكان تلك الممالك ، ولذلك فان كثيرامن الفرس والروم وغيرهم أتوا الى مكة والمدينة لأخذ علوم الدين من منابعها ، هذا بالاضافة الى الاسرى والموالي وغيرهم الذين استوطنوا فى الكثير من المدن العربية وهذا الذى سبب مؤالفة ومعاشرة بين أفراد أمة جديدة : هي الامة الاسلامية قد سبب بدوره أمورا عدة نخص بالذكر منها ما يعود على اللغة . فاللغة العربية التي كانت لغة سليقة قد أصبحت بعد هذا المزج لغة يصعب فهمها اذا تكلم بها الموالي ، ولم تكن هذه الصعوبة ناتجة عن صعوبة النحو والصرف فحسب بل حتى من صعوبة الالفاظ والحروف، فكثيرا من الكلمات كان ينطق بها الموالي محرفة لأنه كان يثقل عليهم اخراج بعض حروفها وعلى الخصوص حروف الحلق والاطباق ، فكانوا يقولون مثلا : (أربي) عوض (عربي) (وترك) بدل (طرق) هذا بالاضافة الى ضالة مجموعة المفردات العربية التى كانوا يكسبونها بالقياس الى ما كان يملكه العربي المنبت ويجب أن نلاحظ أن الداء الذى تسرب الى العربية لم يكن آتيا من الأعاجم وحدهم بل ان العرب من سكان الحضر أنفسهم كانوا يخطئون ويحرفون ، فكانوا يحركون ما جاء ساكنا ، ويسكنون ما جاء متحركا ويبدلون الحرف بحرف آخر ، وكانوا يكسرون ما جاء مفتوحا ويفتحون ما كان مكسورا ، ويضمون ما جاء مفتوحا ويسقطون الهمز فيما جاء مهموزا . وكل نوع من أنواع هذه التغيرات يلحق أو يحدث التباسا فى الفهم وتغييرا للمعنى ، ويضاف الى هذا التحريف ما تضعه العامة فى غير موضعه كقولهم : اكلنا ملة بالفتح وانما الملة هي الرماد الحار . وفى كل هذه الأمثلة نرى أن التغيير الذى يلحق كلمة يؤثر فى المعنى فيغيره وعلى هذه الطريقة يقع الالتباس الذى يحصل بعده عدم الفهم فى الكتابة والمحادثة على الخصوص . وقد خصص ابن السكيت لهذه الانواع من الاخطاء وما ماثلها كتابا اسماه : « اصلاح المنطق » . وهذا الذى حصل للغة العربية ما هو الا عامل لغوي محض يحصل لجميع اللغات أثناء تطورها الطبيعي ، وهذا العامل اللغوى كان أحد الدواعي لنشأة الابحاث اللغوية .

أما الداعي الثاني الذى قامت عليه الابحاث اللغوية فهو عامل ديني يرجع الى القرآن والحديث. نحن نعلم أن القرآن نزل بلسان عربي ، الا أن العرب عامة لم يكونوا يعرفون معانى كل ما جاء فيه من ألفاظ . ومن المعروف فى علم اللسان أن اللغة كمادة ليس فى استطاعة الفرد أن يملكها بل انها ملك المجموعة البشرية الى تتكلمها وهي وحدها القادرة على معرفتها ككل . ولهذا فانه فى امكاننا أن نقول : ان الحديث النبوي الشريف المفسر للقرآن كان يتضمن كثيرا من الالفاظ التي لا يستطيع تفسيرها الا المختصون . وبما أن الامة الاسلامية الجديدة مكونة من شعوب مختلفة اللغات كان لا بد من شرح وتفسير المفردات الصعبة كأول خطوة حتى يتمكن الكبار والصغار والعرب والأعاجم من معرفة أبسط النصوص على الاقل وفهم المحادثات العادية . وهكذا يمكننا أن نقول ان العلماء قاموا لجمع اللغة وضبطها حين علموا أنه لا يوصل الى معرفة كتاب الله عز وجل ومعرفة حديث رسول لله (ص) وصحابته وائمة الهدى الا بمعرفة لغات العرب وأنحائها . وأول حادثة نبهت الصحابة ، وبالتالي اللغويين الى اختلاف اللغات العربية هي التى شهدوها فى حضرة رسول الله (ص) حين جاءته وفود العرب فكان يخاطبهم جميعا على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ، وتباين بطونهم وأفخاذهم فكانوا لا يفهمون أكثر ما كان يدور بينه وبينهم من حديث . وقد دعا ابن عباس رضى الله عنه الى الرجوع الى لغات العرب على اختلافها حين قال : « ان الشعر ديوان العرب فان خفى علينا الحرف من القرآن الذى انزله الله رجعنا الى ديوانها ، فالتمسنا ذلك منه » . ولذلك فان المفسرين اذا تكلموا فى القرآن وغريب الحديث

كانوا يلتمسون لذلك مصادقه فى اشعار العرب . أما اللغويون والنحاة فانهم مقرون ومتفقون على اختلاف لغات العرب . لقد بدأت عملية جمع اللغة بجمع الأمثال والحكم والاشعار على الخصوص باعتبارها ديوان العرب ، يوم أن ابتعدت الالسن عن عهد الفطرة . أما قبل ذلك العهد أي فى القرن الاول فلم يستفحل بعد داء اللحن ولم تتضخم حاجة المفسرين والفقهاء الى الرجوع الى أصل العربية . ويرجع المرحوم مصطفى صادق الرافعي العلة فى الاخذ عن العرب الى أنه لما اشتهر فى القرن الثاني علم النحو الذى وضعه أبو الأسود الدؤلي ، مست الحاجة الى تتبع اللغات والسماع عن العرب خاصة ، بعد أن قامت المناظرات بين الذين أخذوا عن أبي الاسود حين ابتدؤوا يجردون القياس ويعللون اللحن ويعتبرون به كلام العرب فهذه العلة فى الاخذ عن العرب التى يقول بها المرحوم مصطفى صادق الرافعي ليست كافية ، اذ أن الذين أخذوا عن العرب لم يكونوا يجمعون الاشعار ليجعلوا منها شواهد فى النحو فقط ولكن ليفسروا بها بعض الالفاظ أو ليثبتوا بها ان تفسيرهم للالفاظ صحيح ، وأحسن دليل على ذلك الرسائل اللغوية التي ألفت فى القرن الثاني ، فان هدفها كان لغويا محضا .

وهكذا يمكننا ان نقول أن أول علاقة بين اللغويين والبدو فى ديارهم أو ما يمكن أن نسميه بالرحلة الى البادية كانت فى القرن الثاني ولانستطيع أن نضبط مدة كل رحلة اذ أن آخذي اللغة لما كانوا يسافرون الى الفيافى لم يكونوا يولون أهمية الى الوقت وانما كان همهم الوحيد هو الاستفادة بقدر المستطاع ، واذا عرفنا أن الرحلات للقيام بالتحقيقات اللغوية الحالية تنقسم الى ثلاثة أقسام : ما يدوم ساعة أو ساعتين على الاكثر ومنها ما يتراوح بين اليومين والأربعة أيام ، ومنها ما يستغرق الاسابيع ، فان الرحلات للتحقيقات عند العرب ، كانت تدوم عدة أسابيع بل عدة أشهر وآخذ اللغة يتجول من قبيلة الى قبيلة ومن ناحية الى ناحية متربصا كل الفرص التى تعترضه أثناء حله وترحاله فكان يسجل المعلومات فى المسجد والشارع نهارا ، وتحت الخيام عند ما يحلو السمر ليلا ، واذا أخذنا بعين الاعتبار وسائل السفر فى ذلك العهد ، تحققنا من أن اقل الرحلات كانت تتجاوز الاسابيع ، واذا كان قد أهمل العرب ضبط مدة الرحلات وتحديدها . فان ما صدر عنهم فى حديثهم يلقى الضوء على هذا المشكل . ونذكر على سبيل المثال ما يقوله أبو عمرو بن العلاء : (رايت باليمن) (1) فاذا قدرناه لا المسافة التي تفصل البصرة عن اليمن ولكن المسافة الموجودة بين بلاد الحيرة واليمن ، وهي أحد المناطق التى يمكن الأخذ منها ، نرى أن عبورها وحده يتطلب الاسابيع نظرا لمشقة الاسفار وصعوبتها فى الصحاري ، هذا بقطع النظر عن أن الآخذ يتوقف عند كل قبيلة وعند كل حي ، وقد يقيم الايام ثم يستأنف سفره واذا سمعنا الاصمعي يحكى عن احدى رحلاته فيقول : اني قد هلعت من الغربة واشتقت أهلي (2) نتبين من أن هذه الرحلات كانت تستغرق الاشهر الطوال ، اذ أن العربي عامة صبور ، لا يبوح بمثل هذا السر الا اذا اجتاز الامر الذى يعانيه الحد وهكذا نستنتج أن آخذى اللغة كانوا يفتفرون وحشة الغربة وجفاء البادية للفائدة ولو كلفهم ذلك اقامة الشهور فيها .

تحديد رقعة الفصاحة :

ان الأمر الذى عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من اختلال وفساد هو الذى دعا علماء اللغة الى التوغل فى الصحاري للحصول على لغة صافية سليمة من كل شوب ، وان اضطراب الالسن وخبالها وانتفاض عادة الفصاحة وانتشارها الذى عاشوه فى البصرة والكوفة ، لاحظوه عند سكان القبائل المتاخمة لبلاد الفرس والروم والحبشة وغيرها ، أثناء تطوافهم فيها وعلى هذا الاساس فانهم قرروا أن لا يأخذوا العربية من هذه المناطق ، وانهم لم يكتفوا بهذا القدر ، بل راحوا يبحثون عن أفصح القبائل لسانا ، وأجودها انتقاء لأسهل الالفاظ عند النطق وها

(1) **الجمهرة** : ابن دريد ، ج 2 ، ص 147 .
(2) **الامالي** : ص ، 196 ، مصر ، 1953 .

هو ابن فارس يقول لنا اين وصلت ابحاث العرب في هذه المسألة : « اجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لاشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وايامهم ومحالهم ان قريشا أفصح العرب السنة ، واصفاهم لغة » فأهم ما يجب التوقف عنده في هذا القول هو :

اولا : الاجماع ، وهو امر اساسي بالنسبة لانتخاب قبيلة بين عشرات القبائل العربية .

ثانيا : ان هذا الاجماع لم يقع من طرف فئة معينة من العلماء ينتسبون الى قبيلة ما ، وانما هو امر توصل اليه على حد قول ابن فارس : العلماء بكلام العرب والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وايامهم ومحالهم ، وهو امر لا يدع مجالا للشك خاصة وان المجمعين على هذا الاختيار يمثلون أطرافا مختلفة كالعلماء بمحال العرب ولغاتهم ، والرواة لاشعارهم والعلماء بكلامهم ، وهي تكون في جملتها صميم اللغة . ويواصل ابن فارس حديثه فيشرح لنا العلة التي جعلت العلماء يجمعون على أن قريشا أفصح العرب ، يقول : « وذلك ان الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم ، واختار منهم نبي الرحمة محمد (ص) فجعل قريشا قطان حرمه ، وجيران بيته الحرام وولاته . وهذه كلها اسباب دينية كان من الطبيعي تقديمها على غيرها من الاسباب لما نعلمه من تأثير الدين في ذلك الزمان ، ولا شك ان الأحاديث التي رويت على رسول الله (ص) من انه قال : « انا أفصح العرب بيد اني من قريش » . تزيد هذه الحجة قوة في أعين المسلمين ، وابن فارس لا يقف عند حد الاسباب الدينية بل انه يرجع هذا الاختيار الى موضع قريش السياسي والاقتصادي والديني ، فقريش هي التي تعلم العرب مناسكها ، والى بلد القرشيين يفد الحجاج من كل صوب ، وهي التي تحكم بينهم عند تنازعهم ، وينهى ابن فارس حديثه بقوله : « وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها ورقة السنتها اذا انتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى كلامهم ، فاجتمع مع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب . الا ترى انك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس ولا كشكشة اسد ولا كسكسة ربيعة ولا الكسر الذي تسمعه في اسد وقيس مثل تعلم ونعلم » . ويظهر من كلام ابن فارس أن قريشا على الرغم من فصاحتها وحسن لغتها ، انها لم تكن ترفض ما تستحسن من كلام غيرها من القبائل الاخرى فتضيفه للغتها ، وعملية التصفية هذه هي التي جعلت من قريش أحسن العرب لغة ونتيجة ذلك أن لغة قريش بعيدة كل البعد عن العيوب الموجودة في لغات القبائل الاخرى ، فقد سلمت من العجرفة والكسكسة والكشكشة وغيرها .

واللغويون العرب لم يأخذوا اللغة عن قريش وحدها بل أخذوا عن قبائل أخرى محدودة معدودة رتبوها حسب المقدار المأخوذ عنها واعتمادنا في هذا على ما جاء في المزهر : على لسان الفارابي حيث يقول : « والذين أخذ عنهم اللغة وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب : هم قيس وتميم وأسد ، فان هؤلاء الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وهذا القول الصريح يبين لنا المراكز التي اخذت منها اللغة الموثوق بها من اعراب وتصريف وغريب . ويواصل الفارابي تحديد الرقعة التي أخذ منها اللسان العربي ، فيحدد المناطق التي حرم الاخذ منها فيبدأ بالمدن ثم بالقبائل العربية المجاورة لسكان هذه الامم — وهي نظرية صائبة اثبتها علم اللسان الحديث ، فاختلاط الاجناس المختلفة في مدينة واحدة يفسد اللغة الاصلية ، كما يفسدها ايضا ابتعاد الناطقين في سكناهم ومواقعهم عن مركز الفصاحة ، اذ ان وجودهم في اطراف هذه الرقعة يضطرهم الى أن يختلطوا حتما بمن يجاورهم من الأعاجم .

(3) **الصاحبي في فقه اللغة** ، ص 52 ، بيروت ، 1964.

ديار بكر
البزنطيون
(الروم)
بحر الروم
الغساسنة
التغالبة
بنو شيبان
الفرس آل ساسان
(النبطيون)
بنو كلب
قضاعه
اللخميون
بلاد الحيرة
طي
بكر وائل
أسد
كنده
بنو عامر
البحرين
بحر فارس
خليج عمان
مصر
سليم
حنظله
بنو تميم
يثرب
بنو عبد القيس
هوازن
بحر القلزم
خزاعه
النوبه
هذيل
عقيل
قريش
بنو حنيفه
بنو ثقيف
مكه
اليمامه
بنو نصر
الأزد عمان
بجيله
باهلة
كنانه
قحطان
همدان
حضرموت
الأزد
كهلان
كنده
حمير
بحر الحبشة
(بحر اليمن)
مملكة
أكسوم
(الحبشة)
بحر الهند

ثم يأتي الفارابي للتفصيل والتعليل فيقول : « فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقطب ولا من قضاعة وغسان وأياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصاري يقرؤون بالعبرانية ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانين ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ولا من عبدالقيس وأزد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة عنهم ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم » فأهم شيء يثير الانتباه في قول الفارابي هو استعماله وترديده كلمتي المجاورة والمخالطة ، ولا شك أن استعمالها من طرف الفارابي كان مقصودا اذ أنه كان نتيجة لملاحظة اللغويين الذين تجولوا في جميع أركان الجزيرة فان هذه الملاحظات التي بنوا عليها تحديدهم لرقعة الفصحى قد أثبتتها التجارب العديدة في الجغرافية اللسانية . ولو نظرنا الى الخريطة لتبين لنا أن جل القبائل التي أخذ عنها كانت تسكن قلب الجزيرة فبعدت بذلك عن التأثيرات الخارجية وضمن لها ذلك البعد سلامة لسانها وحافظ عليه وخاصة فيما يتعلق بتميم واسد وقيس .

المشاكل المنهجية (العنصر الانساني)

أ ـ المورد :

ان تحديد رقعة افصحى كان يشكل عنصرا مهما بالنسبة للغويين العرب ولكن متطلبات العنصر الثاني المتمم له لم تكن أقل أهمية من العنصر الاول ، واذا كان اللغويون قد تحرزوا كل التحرز في فصل مناطق العربية السليمة فانهم تشددوا في اختيار الاعراب الذين أخذوا عنهم اللغة في تلك المناطق وعلة هذا التشدد واضحة اذ أن آخذي اللغة قد رسموا مرامي لتحقيقاتهم واذا وصف اللغويون « المورد » بخشونة العيش فمعنى ذلك أنه لازم البادية ولم ينتقل الى قبيلة أو منطقة متاخمة لامة من الامم التي تتكلم بلسان غير عربي ـ أي أعجمي ـ فبقيت لغته صافية من كل شوب وايضا معناه انه بقي على طبعه فصيح اللسان لا يحيد عن الجواب ولا يخطيء في تأليف الكلام وبناء الكلم ، ومن الشروط اللازمة في المأخوذ عنه : الامانة ، اذ يجب أن يكون معروفا لدى قومه بأمانته لا يغير كلمة بكلمة أخرى أو حرفا بحرف ، وان كان ذلك لا يخل بالمعنى يروى بيت الشعر كما سمعه ويذكر المناسبة التي قيلت فيه كما كان الحال ، كما يجب أن يكون المورد صادقا فيما يقول ، لا يحذف ولا يضيف شيئا مما سمعه ولا يبدل مناسبة بمناسبة حتى يتضح المعنى المقصود في البيت والقصيدة ، ويسهل شرح ما غمض من الالفاظ ، ويجب كذلك أن يكون المورد عدلا في جوابه اذا كان السؤال يتطلب جوابين أو أكثر ، واذا كثرت الالفاظ على المعنى الواحد ، فيجب أن لا يميل الى قول دون قول آخر لاستحسانه له أو لسبب من لاسباب الشخصية أو القبلية ، أيضا يجب أن يكون المورد ثقة يطمئن اليه آخذ اللغة ، لا يشك أحد من قومه في صحة ما يقول يعتد بأقواله ، وكل هذه الشروط لم تكن تتوفر لدى جميع سكان البادية ، فحفاظ الشعر كان يشار اليهم بالاصابع وكانوا معروفين في كل قبيلة وذلك لما كان للشعر من أهمية عند العرب . أخذو اللغة كانوا يتوجهون الى مثل هؤلاء الناس على الخصوص لانهم لا يصلون الى هذه المرتبة ولا يحظون بمثل هذا الاعتبار الا بعد تدريب يدوم سنين طويلة يبرهنون فيها على أمانتهم وصدقهم وعدلهم وثقتهم أما غير هذه الفئة المعينة من الناس فلم يكن يتردد آخذو اللغة في الاخذ عنهم . فكانوا يأخذون عن النساء والعبيد والشيوخ كما أنهم كانوا يأخذون عن الصبيان دون تحرج ، بل انهم كانوا يعمدون الى ذلك علما بأن الصبي هو أحسن مقلد لمحيطه .

ب ـ آخذ اللغـة :

ان آخذى اللغة عن البدو كثيرون ويعتبرابو عمرو بن العلاء وابو يزد الانصاري وابو عبيدة والاصمعي صفوتهم . وقد جاء فى المزهر مـا يؤكد ذلك : « قال ابو الطيب : وكان فى العصر ثلاثة هم أيمة الناس فى اللغـة والشعر وعلوم العرب لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، عنهم اخذ جـل مـا فى أيدى الناس من هذا العلـم وهـم ابو زيد وابو عبيدة والاصمعي وكلهم اخذوا عن ابي عمرو اللغة والنحو والشعر وروووا عنه القراءة»(4) فأبو عمرو اذا هو امام الايمة وسيد الناس واعلمهم بالعربية ، ويكفي شاهدا على ذلك تخرج الاصمعي والخليل بن احمد على يديه وتأسيسه لمدرسة البصرة ولن نبالغ اذا قلنا أن شخصيـة ابي عمرو كانت تسيطر على الحركة العلمية فى العصر الذى بدأ ينضج فيه جيل العلمـاء كالخليل وغيره . ولد هذا العالم الجليل فى مكة سنة سبعين على الاكثر ، وقضى صباه بالحجاز قبل أن ينتقل الى العراق ، ويشهد له كافـة ائمة اللغة بتطوافه صحاري الجزيرة ، وانه وان لم يترك آثارا مكتوبة فان تأثيره فى نمو اندراسة اللغوية امر لا يختلف فيه اثنان . ومما يدعو الى اليقين بأنه واضع منهج الاستقـراء هو وفرة المعلومات التي أخذت عنه والتى تشهد بها كتب اللغة على ممـر العصور ، واذا كـان صاحب الفهرست قد ذكر انه رأى لهذا العالم مخطوطـا فى القرن الرابع ، وان كتاب النوادر كان منقولا عنه ، فهذا انما يعني املاءاته الشفوية على تلاميذه ، وزيادة على علمه فقد عرف ابو عمرو بدقة تبليغه لما التقطه مـن افواه العرب وصدق أقوالـه ونستنتج من هذا أمرين : احدهما أن أبا عمرو كان فى اخذه اللغة عن البـدو يشترط فى المورد فصـاحة اللسـان أي سـلامتـه من الآفات والعيوب ، وهو شرط أساسى بالنسبة للمورد وذلـك حتى لا يعتور كلامـه الغموض والتشابه وذلك ما يؤدي بسهولة الى فهم كلمة عوض كلمة أخرى وهذا ما لا يرضاه آخذ اللغة فما بالك بذلك فى القرن الثاني للهجرة ولم تكـن توجد آلات للتسجيل يرجع اليها للتحقق من أن هذه الكلمـة او تلك تكتب بالسين لا بالصاد مثلا او العكس ، اولا تكتب بكليهما وانما بالزاي . وتزداد هذه الخاصية قيمة عند سماع الاشعـار من المورد ، فهو يتلوهـا وآخـذ اللغـة يسجلهـا فورا فى ذاكرته ثم يكتبها . ومن خصائص آخذ اللغـة والتي كان يتحلى بها ابو عمرو بن العلاء قـوة الحافظة ، فقد قال الاصمعي فيه : « سألت اباعمرو عن ثمانية آلاف مسألة مما أحصيت عددها من اشعار العرب ولغاتها غير ما لم أحص ، فكأنه فى قلوب العرب » .

اما تلاميذه الثلاثة الذين يرجع لهم الفضل فى جمع اللغة وبثها وهم ابو عبيدة وابو زيـد الانصاري والاصمعي ، فقد تميز كل واحد منهم باختصاصه ، يذكر السيوطي : « أن أبا عبيدة كان اعلم الثلاثة بأيام العرب وأخبارهم واجمعهم لعلومهم وكان اكمل القوم ، أما ابو زيد الانصاري فقد وصف بأنه أحفظ الناس وانه اكثرهم اخذا عن البادية وقد كان من رواد الحديث ثقة مأمونا ، وكذلك حاله فى اللغة وقد أخذ عنه اكابر الناس منهم سيبويه وحسبك ، أما الاصمعي فقد شهد له معاصروه بأنه أحضر جوابا واتقن لمـا يحفظ من زملائه ، ومما فاق به الاصمعي زملاءه هو قوة حافظته فقد قال عن نفسه : « اني احفظ اثني عشر الف ارجوزة فقال له رجل : منهـا البيت والبيتان فقال : ومنها المئة والمئتان » . ويؤكـد هذا القول ما رواه ابن الاعرابي حين قـال : شهدت الاصمعي وقد انشد نحوا من مائة بيت ما فيها بيت عرفناه . » ايضا من الامور التى انفرد

(4) **المزهـر** : ج : 2 ، ص 401 ، ط 4 ، دار أحياء الكتب العربية ، 1958 .

(5) **مجالس العلماء** للزجاجي ، ص 242 ، الكويت 1962.

بها الاصمعي دون غيره هو شدة تألهه . فكان لايفسر شيئا من القرآن ولا شيئا من اللغة له نظير فى القرآن . وكذلك الحديث تحرجا وكان لا يفسر شعرا فيه هجاء وانه مع كثرة الاشعار التي كان يحفظها كان يضيق ولا يجوز الا أصح اللغات ويلح فى ذلك ويمحك . انا من خلال خصاص رواد اللغة الثلاث وا مامهم ابي عمرو نستطيع ان نستخرج الشروط المطلوبة فى المحترى وهى كما يلى :

قوة الحافظة والسماع المرهف والأمانة التامة فيما يرويه والحدق فى كيفية انطاق الموردين . وعمل آخذ اللغة على تكوين صلة بينه وبين الموردين . ولكل شرط من هذه الشروط اهمية . فقوة حافظة الباحث تعينه على جمع الاشعار والامثال السائرة التى كانت تدور فى المجالس أو السمر أو أثناء الترحال . والتى لايستطيع تسجيلها لتوه وذلك لعذر ما ، وهي تعوض اليوم ما يعرف بآلات التسجيل التي تخزن المحادثات التي تدور بين الآخذ والمورد للتحقيق فيها عند الرجوع الى المخبر ثم تسجيلها فى الكتب . وان قوة الحافظة وحدة التذكر يتممان بعضهما بعضا . أما السمع المرهف فيحمي آخذ اللغة من الخطا . أما الثقة والصدق والامانة فتعد من دعائم المحقق ، واذا كان الاصمعي يتحرج فى تفسير شيء من اللغة له نظير فى القرآن فلذلك اسبابه العميقة منها الخوف من أن يقول على الله شيئا بغير حق ، ومنها علمه بأن ما يلتقطه من أفواه العرب ويبثه فى الكتب قد يحتاجه أصحاب النحو كما يحتاجه المهتمين بأمور الدين والشريعة . ويعتبر العمل على تكوين صلة ودية بين الآخذ والمورد من الشروط الاولية لانها تسهل عمل الباحث . فتزيل الخجل والتردد من نفس المورد فيأنس لمخاطبة آخذ اللغة ويحدثه بكل طلاقة ودون ما تحرج ، فيبلغ بذلك آخذ اللغة غايته ، وتنشأ هذه الصلة من كثرة التردد على الاحياء والقبائل . ومن المعروف أن التردد على بيوت الاعراب كان من دأب الموردين عموما . ولذا فاننا لا نشك فى وجود هذه الصلة بينهم وبين من أخذوا عنهم . وقد برع الاصمعي فى هذا المجال ، وحتى يرسخ فى نفس المطلع ما قدمناه نذكر على سبيل المثال هذه القصة التى أوردها صاحب المزهر من كتاب الترقيس عن الاصمعي قال : « كنت أغشى بيوت الاعراب أكتب عنهم كثيرا حتى الفوني وعرفوا مرادي ، وانا يوما ما ربعذاري البصرة قالت لي امراة : يا أبا سعيد ائت ذلك الشيخ فان عنده حديثا حسنا أكتبه ان شئت ، قلت أحسن الله ارشادك ، فأتيت شيخا هما فسلمت عليه فرد علي السلام وقال : من أنت قلت أنا عبد الملك بن قريب الاصمعي فقال ذو يتتبع الاعراب فيكتب الفاظهم ، قلت نعم ... » فان هذه القصة تلقى الضوء على الصلة الموجودة بين آخذ اللغة والمأخوذ عنه وهي ناشبة عن كثرة التردد على الاحياء ، وتبين على الخصوص أن صيت الاصمعي قد ذاع الى درجة انه كان يعرفه الرجال والنساء ، فعرفوا اشتغاله بأمور اللغة والفوه ، فكانوا يشيرون عليه بالاماكن والشيوخ الذين يمكنه أن يجد عندهم الأحاديث الحسنة اللطيفة والغريبة التي ترضيه ، وقد بلغت هذه الصلة بين الاصمعي وبين بعض من الاعراب درجة الود والايخاء ، وهذا يشجع المورد لسرد كل ما يعرف بل لحفظ أشعار جديدة أو البحث عمن يحفظها ، كل ذلك ارضاء لصديقه وتدعيما لروابط الصلة بينه وبينهم وبهذه الكيفية بلغ آخذوا اللغة بغيتهم فى جمع اللغة وضبط العربية وحصرها فى كتيبات استند عليها أصحاب المعاجم فيما بعد ولم يتركوا للذين أتوا بعدهم الا القليل ولذلك فانهم يعدون الجهابذة الذين شهد لهم معاصروهم بجليل ما قاموا به من أعمال ولقبهم من جاء بعدهم بالافاضل الصلحاء والخلص الصرحاء لما بذلوه من الاعتناء لضبط اللغة العربية وتقييدها .

المزهر ج : 2 ، ص 402 .

ج ـ طرق الاخـذ :

أ ـ **السماع** : بعد الحديث عـن الشروط التي يجب أن تتوفر في الآخذ والمورد ، والحـديث عن الصلـة التي تنشـأ بينهمـا نريد أن نتعرف الان عن عمل المتحري وطريقته في الاخذ عند ترحاله من قبيلة الى قبيلة وأثناء اقامته بالاحياء ، وقد سبق أن قلنا ان آخذي اللغةالعرب كانوا يغتنمون كـل الفرص التيتعترضهم أثناء حلهم وترحالهـم ، وان هذه الكيفية في أخذ اللغة دون طرح سؤال يمكن أنندرجها ضمن السؤال غير المباشر لان الباحث لا يطرح فيها سؤالا معينا في موضوع معيـن ولا يحـاول أن يتعـرف فيهـا على المورد ليسلط عليه مقاييسه أو ليضعه تحت المحك ، وانمـا يستنتـج كـل هـذه الامـور من كلام المورد ومستمعيه ، فهو أي آخذ اللغة مثلهم جالس يستمع ، وقد يكون ذلك في مجلس أو مسجـد أو حلقة سمـر ، أو ماشيـا على قـدميـه في الاسواق أو راكبـا ، وان المـورد لا يـدري أن هناك انسـانا يسجـل حـديثه فهو عادي السلوك منطلق اللسان لا يتصرف في حركاتـه ولا يتكلف القول ، فهو مطمئن نفسيا ولا يمكـن الحصول على هذه الحالة النفسية لو وجه اليه السؤال المباشر الا بعد جهد وعناء وسنعرض لذلك عند الحديث عما يحدثه السؤال المباشـر مـن سـوء الفهـم أحيـانـا . فيمكننـا اذن أن نـدرك أهميـة السمـاع والفـائـدة التي يعـود بهـا على آخـذ اللغـة وعلى الجـوائهـام الـذي تـؤخـذ فيـه اللغـة وقد كان آخذو اللغة العرب كثيرا ما يستعملون هذه الطريقة ، وها هي بعض الحكايـات التى جرت لبعض آخذي اللغة شرحا وتدعيما لما قـدمناه ، ورد في كتاب الامالي هذه الحكاية لأبي زيد « قال بينما انا في المسجد الحرام اذ وقف علينا اعرابي فقال : يا مسلمون ان الحمد لله والصلاة على نبيه ، انى امرؤ من هذا الملطاط الشرقي المواصى أسياف تهـامه ... فهـل من آمر بمير أو داع بخير وقاكم الله ... قال : فأعطيتـه دينارا وكتبت كلامه واستفسرته ما لم أعرفه . » وهذه قصة أخرى للاصمعي وردت كذلك في أمالي القالي : قال الاصمعي : نزلت بقوم من غنى ضربه مجتورين هم وقبائل عامر بن صعصعة فحضرت ناديا لهم وفيهم شيخ لهم طويل الصمت عالـم بالشعر وايام الناس يجمع اليه فتيانهم ينشدونه أشعارهم فاذا سمع الشعر الجيد قرع الارض قرعة بمحجن في يده فينفذ حكمه من حضر ببكر للمنشد واذا سمع ما لا يعجبه قرع رأسه بمحجنة فينفذ حكمه عليـه بشاة اذا كـان ذاغنم وابن مخاض اذا كان ذا ابل ، واذا أخـذ ذلك ذبح لاهل النادي ، فحضرتهم يوما والشيخ جالس بينهم وأنشد بعضهم ... « وهذه قصة اخرى لابى عمرو بن العلاء وردت في الجمهـرة قال أبو عمر : « سمعت اعرابيا يقول مكثت ثلاثا لا أذوقهم طعاما ولا شرابا أي لا أذوق فيهـم طعاما ولا شرابا » .

وهكـذا نرى أن طريقـة السماع كان يستعملهـا كـل آخـذي اللغـة العـرب . وكـذلك فاننـا نجـد في كثير من كتب اللغـة سواء كان ذلك على لسـان أبي زيد وأبي عبيدة أو الاصمعي ، هذه العبارة : « سمعت بدويـا يقول : « والمتصفح لكتاب الجمهرة وحده يكفيه أن يعرف قيمة هذه العبـارة لكثرة ورودها فيه وأن يتعرف من خلال الاقوال التى سمعها آخذو اللغة عن قيمة السماع وما يأتي به من فوائـد لغوية في مواضيع شتى .

ب ـ السؤال غير المباشر :

غير أن السماع وحده لا يكفي لجمـع اللغة ولمعرفة نوادرها ، ولهذا يستعمل الباحثون العرب السؤال غير المباشر ، ويتعلق هذا النوع من السؤال بمواضيع عامة أو خاصة حسب مـا يمليه الوضع ، ولذكاء آخذ اللغة القسط الاوفر في تكوينه لأنه ينطلق من لا شيء ليستميـل المورد

نفس المرجع : ص 307 .
الأمالي : لابي على القالي ، ج 1 ص 112

الى الحديث ثم يستدرجه شيئا فشيئا الى الكلام فى الموضوع الذى يكون قد عينه مسبقا ، وهي طريقة تظهر مهارة المحققين فى تجنب وقوع الموردين فى الانقباض النفسي أو التردد أو الالتباس أو الارتباك . ولنرى بعض هذه الامثلة التى وردت فى آمالي القالي يرويها عبد الرحمن عن عمه الاصمعي قال : « قلت لاعرابي بحمى الربذة : الك بنون ؟ قال : نعم وخالقهم لم تقم عن مثلهم منجية . فقلت : صفهم لي قال : جهم وما جهم ينضي الوهم ويصد الدهم ويفرى الصفوف ويعل السيوف قلت ثم من ؟ قال : غشمشم وما عشمشم ماله مقسم وقرنه مجرجم جذل حكاك ومدره لكاك . قلت ثم من ؟ قال : عشرب وما عشرب ، ليث محرب وسمام مقشب ذكره بارهر ، وخصمه عافر ، وفناؤه رحاب وداعيه مجاب . قلت : فصف لي نفسك ؟ فقال : ليث ابو دبابل ركاب معاضل ، عساف مجاهل . حمال اعباء نهاض بنزلاء » . الاترى فى هذه الصورة كيف تدرج آخذ اللغة من السؤال العام : الك بنون ؟ وهو سؤال طبيعى ومبتذل للغاية وخاصة بالنسبة لشيوخ المسنين الى سؤال خاص يتطلب الدقة فى الرد ، وقد طرحه المتحرى عندما سمع الرد عن السؤال الاول والذي تبين له فيه ان المورد يطرىء فى الكلام عن ابنائه ، فاستغل الظرف وهو فى هذه القصة بالذات نقطة ضعف الشيوخ فى حديثهم عن الابناء ، ليميله الى الوصف ، وقد فعل . وكنهاية طبيعية لهذا اللقاء سأله ان يصف نفسه . فى المثال الثاني يقول الاصمعي بينا انا فى حمى ضرية اذ وقف علي غلام من بني اسد فى اطمارما ظننته يجمع بين كلمتين فقلت : ما اسمك ، فقال : حربقيس ، فقلت اماكفى اهلك ان يسموك حرقوسا حتى حقروا اسمك . فقال : « ان السقط لا يحرق الحرجه فعجبت من جوابه فقلت : اتنشد شيئا من اشعار قومك ؟ فقال نعم انشد لمرارنا ، فقلت افعل فقال ... » وفى هذا المثال نرى كيف انطلق آخذ اللغة من سؤال عادي (ما اسمك) الى سؤال فيه نوع من الاحراج وان لم يكن مقصودا فى ذاته ، فقد اراد به آخذ اللغة جر المورد الى الحديث . وفعلا فقد رد المورد رداعجب له الآخذ واثار انتباهه واهتمامه فاسرع الى القاء السؤال عليه : اتنشد شيئا من اشعار قومك . فى هذه القصة كذلك نرى كيف استنتج المحقق من رد المورد (وهو مثل سائر) ان محدثه يمكن ان يحفظ الاشعار ، والأشعار التي لها قيمة والتي يحتاجها المحقق لأن رده كان مناسبا فلم يتردد فى طرح السؤال عليه . واننا من خلال هذه الامثلة الثلاث نرى خط السير فى السؤال غير المباشر ، وهو يتركب من حلقتين : حلقة السؤال العام ، وحلقة السؤال الخاص وتربطهاتان الحلقتان الرئيسيتان حلقات تقصر وتمتد حسب الظروف وحسب المورد ، وقد تبين لنا ذلك بوضوح فى المثال الاول والمثال الثاني .

وان كانت طريقتا السماع والسؤال غير المباشر تسهلا عمل المتحري وتشجع المأخوذ عنه على الحديث — فلا ينزعج ولا ينقبض نفسيا ، فتأتي بنتائج هامة — فانها تخضع آخذ اللغة للظروف وللصدف لأن الاشعار التي تقال فى مجلس او ناد قد تعاد فى مجالس ونوادي أخر والحديث مع شيخ او شاب قد لا يستحق الاهتمام ، ولهذا فان الصبر والمثابره يقيدان هذه الطريقة ويعطيانها قيمتها الحقيقة ، وبمساعدتهما يدرك آخذ اللغة بغيته .

جـ — السؤال المباشر :

بقيت طريقة واحدة استعملها المحققون العرب اكثر من غيرها لأنها اكثر اجابية بالقياس الى الطرق الأخرى ، وهذه الطريقة هي طريقة السؤال المباشر ، وهي السبب الأول فى الرحلة الى البادية ، والسؤال المباشر يتطلب كيفيات عديدة فى طرحه وذلك تبعا لما يقتضيه الموضوع أو الشيء المسؤول عنه. والسؤال المباشر مشاكل عديدة يجب على المتحري ان يحتاط لها ، وهذه المشاكل هي :

نفس المرجع : ج 2 ، ص 264 .

ـ ارتباك المأخوذ عنه ـ تردده ـ تمتمته ـ صمته الطويل ـ وكل مايمكن ان يعتريه من حالات نفسية . وعلى هذا فان السؤال المباشر يقتضي يقظة مستمرة من طرف آخذ اللغة حتى يشجع المأخوذ عنه ويوجه حديثه ، فلايحيد عن الموضوع ويجيب عما سئل عنه . ومن الكيفيات العديدة فى طرح السؤال المباشر : ـ الاشارة الى الشيء اذا كان امام الباحث وعلى مرأى منه ، كأن يضع مثلا اصبعه على عضو من اعضاء فرس اودابة او اي شيء آخر ، حتى يتبين بوضوح للمورد العضو أو الشيء الذى سئل عنه ، فيجيب دون تردد وتستعمل هذه الكيفية اما لمعرفة اسم شيء يجهله الباحث ، واما للتحقق من نطق احد حروف الاسم او الكلمة ، ولك مثال يعرفك على هذه الكيفية قال فى الصحاح : سألت اعرابيا من بني تميم بنجد وهو يستقي ويكرته نخيس فوضعت اصبعي على النخاس فقلت : ماهذا ؟ واردت ان اتعرف منه الحاء والخاء ، فقال نخاس (بخاء معجمة) فقلت اليس قال الشاعر : وبكرة نحاسها نحاس فقال : ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين .

واذ كان المتحري يريد ان يستفسر شيئا ، فالسؤال يكون على هذه الكيفية = ما ... ؟ وهذا مثال من الجمهرة ، قال الاصمعي :« سألت اعرابيا ماالقرب ؟ فقال : سير الليل لورد الغد ، فقلت فما الطلق ؟ قال : سير اليوم لورد الغب اي بعد غد . « وهكذا تظهر لنا الفائدة العظمى من السؤال المباشر ، فهو موجز مفهوم لايتطلب وقتا كثيرا ، لا فى طرحه ولا فى الرد عنه . ومن الملاحظ ان هذا النوع من السؤال فى طريقة الأخذ عن البدو يتعلق على الخصوص بموضوعات الرسائل التي تطرق موضوعا معينا ، ولذلك فانك ترى فى المثال الاخير تعدد الأسئلة وتتابعها دون ترك فرصة للمأخوذ عنه للاستمرار فى الحديث الذى يحمل معنى جديدا وان كان فى نفس الموضوع ، ومعنى ذلك انه يكرر نفس المعنى فى صيغ وتراكيب اخرى ، وقاعدة العرب هي ان خير الكلام ما قل ودل . وهذا يدل على توجيه الأخذ للمورد وحرصه على ان يأخذ منه اكبر كمية ممكنة من المعلومات ، دون ضياع الوقت لانه يعلم ان طول الحديث وكثرة السؤال يدخلان القلق والضجر عن المورد ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان طول حديث المورد يخرجه غالبا عن الموضوع .

ومن الطرق التي استعملها آخذو اللغة العرب تعدد الذين اخذ وا عنهم ، وقصدهم من ذلك التثبت فيما اخذوه وتصحيحه حتى يكونوا على يقين عند تبليغه للناس او بثه فى الكتب انه لا مجال للشك فيما اخذوه . وها هو مثال يبين لك ذلك . قال فى الجمهرة فى مادة ج ش ع قال الاصمعي : قلت لأعرابي : ماالجشع ؟ فقال : اسوأ الحرص ، وسألت آخر فقال : ان تأخذ نصيبك وتطمع فى نصيب غيرك . « وهذه الطريقة كان يقصدها آخذو اللغة فى السؤال المباشر عنوة ، اما فى طريقة السماع فكانت تأتي عفويا وهي من محض الصدفة ، وآية ذلك الاختلافات الموجودة فى رويات بعض الاشعار .

د ـ تسجيل المعلومات :

رغم قوة الذاكرة التي عرف بها آخذ واللغة العرب فانهم لم يكونوا يعتمدون عليها الاعتماد الكلى لعلمهم ان طاقتها محدودة وانها لا تحفظ الاماسهل حفظه وانها تخضع لرغبات الانسان ـ فهو لا يحفظ الا مايستهويه ولذلك فان الباحثين كانوا يسجلون المعلومات التي كانوا يلتقطونها من افواه البدو حتى لا يخيم عليها النسيان وتضيع الى الابد ، وكيف يضيع آخذ واللغة ما جابوا من اجله الفيافى وافنوا فى سبيله اعمارهم ؟ فالتسجيل اذا كان من دأب المحققين وديدنهم ، فتمعن ما

الجمهرة : لابن دريد ج 3 ، ص 469 .
المزهر : ج 1 ، ص 140 .

أخبرنا به عبد الرحمان عن عمه قال : « سمعت صبية يحمى ضربة يتراجزون ، فوقفت وصدونى عن حاجتي واقبلت اكتب ما أسمع اذ اقبل على شيخ فقال : أتكتب كلام هؤلاء الاقزام الادناع» وهذا دليل قاطع على ان الاصمعي ومن عاصره من الباحثين كانوا يسجلون مايرون فيه فائدة فما بالك بالاشعار التي كانوا يجهلونها والمفردات التي سألوا عنها .

وهكذا يتبين لنا بجلاء ان اللغويين العرب ـ باستعمالهم طرق الأخذ المختلفة وأخذهم اللغة عن الذين لم يعرفوا الحضر ولا من جاوره قط ، وتحديد هم لرقعة الفصحى على أسس علمية سليمة ـ كانوا أول من وضع القواعد الأولى لجغرافية اللغة والتحرى اللغوى فى الأماكن المعنية وكذا علم اللهجات ، علما بأنهم لم يأخذوا ذلك لا عن الصينيين ولا الهنود ولا اليونان ولا الرومان .

الخـــلاصـــة

ان اللغويين العرب القدامى استطاعوا ان يجمعوا دواوين ضخمة (من كلام العرب) ليتمكنوا من اجراء تحليلاتهم على اللغة العربية . وبغية الحصول على هذه المدونة كانوا قد أثبتوا الحد اللغوى (أى معيار الفصاحة) الذى اعتزموا وصفه كما أجروا التحريات العديدة فى الأماكن المعنية . وكانت مواقع تحرياتهم محددة تحديدا دقيقا الا أن رقعتها قد تغيرت مع الزمان . وكان اكبر همهم هو انتقاء الموردين (الذين أخذ عنهم اللغة) وأقاموا لذلك عددا من الوسائل الفنية بلغت حدا بعيدا من الاتقان : منها المشاهدة الشبه المساهمة والمحادثة الموجهة والسؤال المنتظم عن مجارى اللغة وغير ذلك .

RESUME.

Les méthodes d'enquête utilisées par les anciens linguistes arabes.

Les anciens linguistes arabes ont réuni un vaste corpus en vue de l'analyse de la 'Arabiyya. Ils ont, dans ce but, défini la norme qu'ils avaient à décrire et entrepris de très nombreuses enquêtes sur le terrain. Ces enquêtes ont porté sur un territoire bien déterminé mais dont les limites ont varié avec le temps. Le choix des informateurs a constitué l'un de leurs plus grands soucis. Ils ont également mis au point un certain nombre de techniques très perfectionnées : observation semi-active, conversations dirigées, interrogation systématique sur les faits de langue, etc...

SUMMARY

The methods of inquiry used by the ancient Arab linguists.

The ancient Arab linguists gathered a large corpus in order to analyse the 'Arabiyya. With this aim in mind, they defined the norms they wished to describe and undertook a great deal of field work. These inquiries were carried out in a well determined area the boundaries of which however varied with time. The choice of informants was one of their major concerns. They also developped some very refined techniques such as semi-active observation, directed conversations, systematic interrogation on language features. etc...

الـزبير سعدي